القارب الجنائزي في أدبيات وإيكنوغرافية حضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة

د.بن عبد المومن محمد*

الملخص:

يتضمن المقال دراسة لنوع خاص من القوارب المعروفة بالقوارب الجنائزية التي عرفتها شعوب الحضارات القديمة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والأخرى القريبة منه، كالحضارة الفينيقية، والقرطاجية، والمصرية القديمة، والرومانية، والإغريقية، وحضارة بلاد ما بين النهرين.

تتعلق وظيفة هذا النوع من القوارب بالعالم الجنائزي ورحلة الروح نحو العالم الآخر، حيث اعتمد على ذكر نماذج من هذا النوع، وقد ورد ضمن مظان متنوعة كالمصادر الأدبية القديمة، وأوراق البردي، والرقم الطينية، والنصب الجنائزية، والرسومات الجدارية. وتم استخلاص أن القوارب الجنائزية كانت من المتطلبات الأساسية لحياة الإنسان القديم من أجل الفوز بالعالم الآخر.

Abstract:

Our study is based on a particular type of ship known as the funeral boat by the peoples of ancient civilizations, overhanging the Mediterranean Sea, such as the Phoenicians and Carthaginians, and the ancient Egyptians and the Romans and Greeks and Mesopotamians.

This study is to reveal the functions of such boats in the funerary world of these ancient peoples, and the journey of their minds to the afterlife, based on iconography, and literary texts, and other archaeological features by showing the need for the burial of those boats that were one of the basic requirements for earning beyond.

*- أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر.

مقدمة:

يؤكد غالبية مؤرخي الدّيانات القديمة على رحلة أرواح الموتى إلى العالم الآخر عبر القارب، أو المركب الجنائزي، أو حتى عن طريق المخلوقات البحرية، بمعنى ضرورة اجتياز المسطحات المائية (أنهارا أو محيطات) لبلوغ هذا العالم، فكان لزاما على الميت (روحه) عبور هذه الكتل المائية التي تفصل بين العالمين الدّنيوي والأخروي، فيمكن أن تكون نهرا، وأحيانا أخرى يكون محيطا.

في رحلة البحث عن سرّ الخلود ببلاد ما بين النهرين ورد إلينا نص ملحمة (جلجاميش) المكتوبة على الرقم الطينية بأنه كان لزاما على (جلجاميش) أن يلتقي بـ: (أوتا نبشتا) لكي يفوز بالخلود، هذا الأخير الذي استطاع فيما سبق تحقيق ذلك، لأنه امتثل لأمر المعبود (إيا) الذي أنبأه وهو نائم بأنّ المعبودات وعلى رأسهم (إنليل) الجبّار شاءت أن تبعث الطوفان على الجنس البشري، وجاء نصّ صوت (إيا) الموجّه لـ:(أوتا نبشتا) ببناء السفينة ورد في نص الملحمة ما يلي:

...والآن يا (أور–شنابي) أين الطريق إلى (أوتا نبشتا)

أين الاتجاه إليه؟ دلني على الطريق إليه

فإذا استطعت الوصول إليه فحتى البحار سأعبرها

... والآن خذ الفأس بيدك يا جلجامش

وانحدر إلى الغابة، واقتطع منها مائة وعشرين "مردية" طول كل منها ستون ذراعا، واطلها بالقير، وغلّف كعوبها بالمعدن واحضرها إليّ... ..

ركب جلجامش و أور–شنابي في السفينة

أنزلا السفينة في الأمواج وهما على ظهرها....

وهكذا بلغ أور – شنابي مياه الموت.... [1]

يستخلص من محتوى أبيات الملحمة حرص (جلجاميش) على بناء السفينة للوصول (لأوتنا بشتى) الذي استطاع النجاة عن طريق السفينة، وبانتهاء الطوفان وعودته إلى بلده، قدّم القرابين للمعبودات التي منحته بدورها الخلود[2].

كما كشفت تنقيبات (كونتونو-G.Conteneau) و(مكريدي باي-MacridyBey) عن تابوت عليه صورة قارب، هذا الاكتشاف يبيّن لنا وسيلة ركوب وضعت تحت تصرف الميّت لإتمام رحلته نحو العالم الآخر، وفي العالم الأشوري كشفت لنا البقايا الأثرية عن صفيحة برونزية يظهر عليها الميّت فوق قارب لعبور النّهر بحضور معبودة ترأست مراسيم التّطهير، أمّا في (بابل) كان الميّت يجهّز على متن قارب بالألبسة، والغذاء كزاد لرحلته نحو العالم الآخر[3]، مما يؤكد أهمية القارب الجنائزي في أدبيات، وإكونغرافية بلاد ما بين النهرين.

وكانت المراكب في مصر القديمة تستعمل كمحمل لنقل المومياء نحو المدفن، مثلما هو الحال بالنسبة لمومياء الفرعون عند نقلها للهرم، فكانت تصنع من خشب الأرز، وغالبا ما عثر عليها مفككة داخل حفر بجانب المدفن مثلما هو الشأن لمركب الملك (خوفو)، التي تمّ انجازه أثناء حكم الأسرة الرابعة، بلغ طوله 34 م، وحسب فرضية علماء الآثار الفرنسيين أن هذا القارب يكون قد استعمل إما لرحلات دينية، أو أنها قد استعملت لنقل مومياء الفرعون(خوفو) وأثاثه الجنائزي الذي دفن معه، لذلك نعتت باسم سفينة "خوفو"، أو سفينة الشمس[4].

هذا ويتجلى تصوّر المصري القديم لتجدّد الحياة بعد الموت من خلال ما تضمّنته أساطيرهم التي ارتبطت بحدثين طبيعيّين مهمّين، أوّلهما شروق الشمس بعد غروبها، ثم فيضان وادي النّيل السّنوي بعد انخفاض منسوبه. وظهرت أسطورة الشّمس التي كانت تجوب السّموات في قارب يبحر بها في النّيل السّماوي، ففي الصّباح سمّي

بقارب (معنزة– Meandjet)، وفي رحلتها اللّيلية في السّماء السّفلية–العالم السفلي– كانت تمتطي مركبا عرف بـ:(مسكتت– Mesketet)، ودفنت نماذج مصغّرة منه داخل قبور موتاهم[5].

الصورة 1 : بقايا قارب يعود لفترة حكم الفرعون **"دن**–Den" 2892-2939 ق م
Photo AFP / Ministère égyptien des Antiquités

لم يكن إبحار الشّمس في العالم السفلي بالأمر السّهل، إذ صادفت هذه الرّحلة مجموعة من المخاطر، فكانت تضطرّ إلى تحويل مركبها الجنائزي إلى ثعبان، أو تلجأ إلى التّعاويذ السّحرية، ومن جملة تلك العقبات ظهور الثعبان (أبوبيس[6]–Apopis) مع إقليم السّاعة السّابعة من ساعات اللّيل، كان يشرب ماء النهر كلّه، فيؤدي إلى توقف الملاحة، ويعجز المركب عن الإبحار، وبعد هزمه بواسطة التّعاويذ السّحرية، تتجدّد الحياة عبر هذا النّهر[7].

لم تتوقف المخاطر أمام رحلة الشمس اللّيلية، فعند مرور مركب "رع- Rê" عبر كهف نهاية الظّلام، يقابله الإله (خيبري) في شكل جعران صوّره المصريون القدماء على شكل "خنفس"[8]، هذه الحشرة المقدّسة التي أصبحت ضمن المنظومة العقائدية الفرعونية، هي التي تدفع كرة الشّمس إلى العالم الآخر في السّماء، وعند اتحادها مع المعبود "رع" تسطع على يوم جديد، لتتكرّر الرّحلة كلّ يوم، والظّاهر أن اختيار هذه الحشرة كان قائما على أسس دينية سحرية.

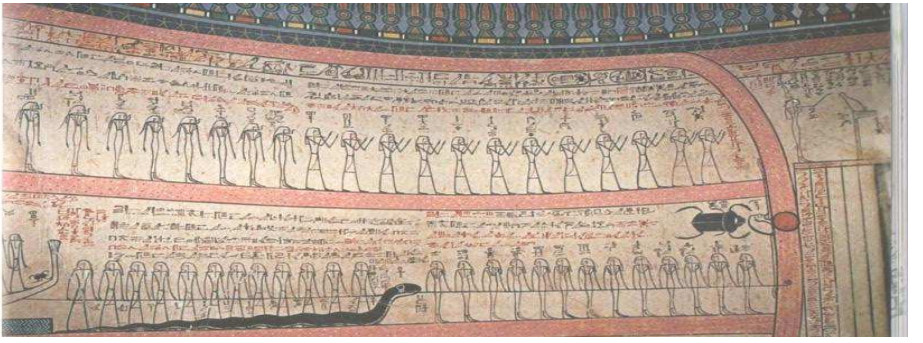

الصورة 2 - قارب عبور النيل في العالم السفلي

Florence Mauric-Barbio, Géographie de L'Au-delà, Dossiers d'archéologie, HS,n°16,2009,p29

ورد إلينا ضمن كتاب الموتى الفرعوني ذكر المركب في العديد من فصوله، نذكر من بينه ما يلي: (...مرحى"خيبري" في مركبك....)، إلى جانب إشارات للزورق (...إن " رع " يبحر مع الريح الهادئة وزورق "سكتت " يتقدم ليأتي إلى المرفأ... بحارة "رع " يبتهجون.....)، ودائما ضمن فصول هذا الكتاب نجد ذكر أهمية الزورق لعبر نهر النيل (..... عسى أن يكون قلبي معي في بيت القلوب...ولا سيكون لي زورق أهبط به في النيل، ولا آخر أصعد به النهر، ولن أقدر على الإبحار معك في النيل....)، وبالتالي ستخلص حضور المركب ضمن المنظومة العقائدية المصرية القديمة، وبدونه لا جدوى من الرحلة نحو العالم الآخر، وما يؤكد ذلك ترنيمة مديح

للمعبود"رع" تردد كل يوم حينما يبحر في زورقه (... الجلال لك...يا من أنت في زورقك، أنت تشرق...أنت تسطع بأشعتك... يا من جعلت هؤلاء الذين يحبونك يبتهجون لملايين السنين... أيا "خيبري " في زورقك ..... أهلكوا خصوم زورق "رع"...)[9].

عند تتبع مراسيم الدفن عند المصريين القدماء نجد انه بعد وضع المومياء داخل التابوت، يتوجّه الموكب الجنائزي حتى يصل الشّاطئ الشّرقي للنيل، ثم ينتقل على متن قارب، ترافقه امرأتان تجسّدان المعبودين "إزيس– Isis"، و"نفتيس –Neftis"، فالأولى تبدو منحية على رأس الميت، والثانية على قدميه[10]، ترافق الموكب الجنائزي نائحات، والخدم الذين يحملون الأثاث الجنائزي[11] للميّت كالمجوهرات، والأثاث، والأواني، والورود، والفطائر[12]. وبالتالي يلاحظ أن المواكب الجنائزية بتفاصيلها المرسومة على جدران المقابر التي كان الميت من خلالها يحج إلى (بوزيريس وابيدوس) بيت ومركز عبادة المعبود (أوزيريس)، ونقل المومياء إلى المقبرة أين كان يوضع تابوتها على قارب يجره ثيران ورجال فهي تخلو من حضور المركب الجنائزي الذي يمثل رمز العبور نحو العالم الآخر.

عرف سكان بلاد المغرب القديم ما يعرف بالقوارب الجنائزية، إذ يذكر (لوت –Lhote)أن رسومات قوارب قد زينت صخور التاسيلي بالصحراء الجزائرية بكل من موقع (ت ين تزاريفت– Tin Tazarift)، و(تيسوكاي– Tissoukai)، و(تامريت– Tamrit)، و(عوان بندر–Ouan Bender)، و(جبران–Jabbaren)، ويشير أنها تعلقت بطقوس، ومعتقدات دينية شبيهة بتلك التي كانت توظّف من طرف المصريين القدماء للتعبير عن رحلة موتاهم نحو العالم الآخر، فكانت تحمل كل منهما على ظهرها أشخاصا، تكون قد تعلقت بطقوس العالم الآخر [13].

وتشير الأسطورة عند الإغريق مكوث البطل الإغريقي "إلوس–Ulysse" سنة كاملة بجانب الساحرة "سيرسي-Circé"، ليقرّر بعدها العودة إلى "إيطاك[14] – Ithaque"، فيتجه على متن سفينة نحو أبواب الجحيم، وعندما يصل يقوم بحفر حفرة ليقدم بداخلها القرابين، فتتهافت حولها الأرواح لشرب دمها [15].

ولا يوجد شك في أن الفينيقيين، والبونيين ببلاد المغرب القديم يكونون قد خرجوا عن تلك القاعدة، لذلك عملوا على تهيئة القارب للميت من أجل إتمام رحلته باتجاه العالم الآخر، مثلما أشارت إليه تقارير التنقيبات بـ (درمش– Dermech) بتونس أين كشف (الأب دي لاتر– Père Delattre) بالحفرة الجنائزية رقم 90 على قارب يمتطيه شخص جالس برأس مقطوعة، ويعلّق على ذلك بأنه تأكيد على رحلة الميت[16].

ووجدت مجموعة من القوارب مرسومة، وأخرى منقوشة على جدران غرف جنائزية بكل من جبل (بهليل– Jbel Behlil) [17]بكركوان الذي يظهر فيه القارب بمجاديفه، وأشرعته، و(بموقدس–Magods)[18]، وجبل(شوشو)[19]، و(كاف البليدة)[20]، و(وادي مقاسبية– Oued Magasbaia) بتونس[21].

ورسمت القوارب الجنائزية على مزهريات عثر عليها (بقورايا – Gouraya)[22] بالجزائر، بدت مزيّنة بصف من الخطوط العمودية، يفترض أنها تمثيلا مبسطا لقارب، وزينت مزهرية أخرى أخذت شكل جؤجؤ، كشفت عنها التنقيبات بمقبرة قرطاجة، تظهر عليها آثار تسعة أزواج من الجدّافين[23]، كما نقشت صورة قارب آخر على نصب بوني حديث (بعين بركوش) بالقرب من (ألتيبروس– Althiburos)[24].

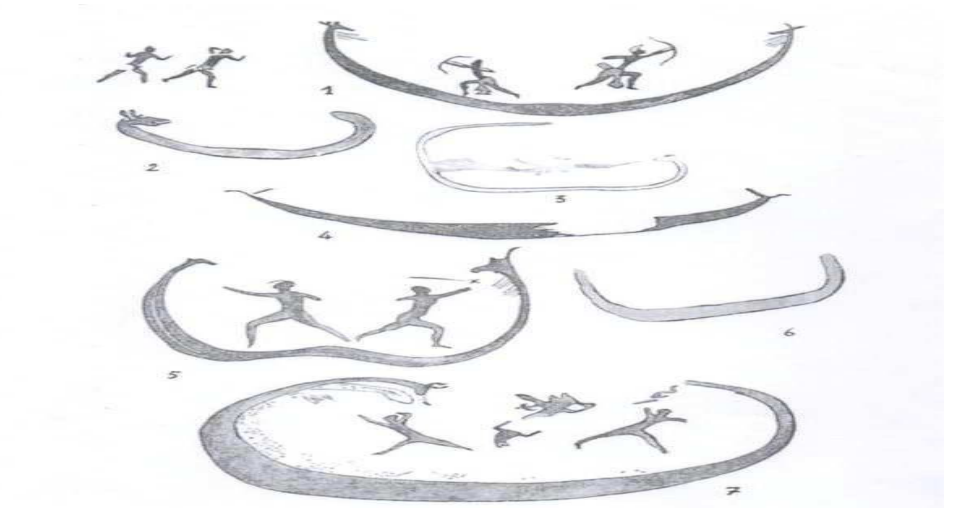

الصورة 3 : **رسومات قوارب التاسيلي الجنائزية – الجزائر**

H.Lhote, Les Peintures pariétales d'époque bovidienne du Tassili, Eléments sur la magie et la religion, Journal de la société des africanistes , 1966,Tome 36,fascicule1,p 20

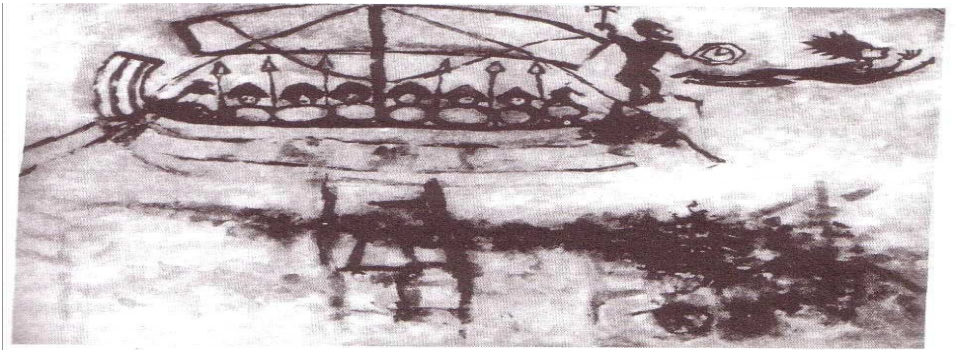

الصورة 4: رسم مغارة (كاف البليدة) بتونس

S.Lancel, Carthage, éd. Céres, Tunis, 1999, p311

ولم تخل شفرات الحلاقة البونية من رسومات القوارب التي ارتبطت بالعالم الآخر، فها هي مقابر(درمش)، و(سانت مونيك)[25]بتونس تكشف النّقاب عن معتقد كان سائدا لدى سكان بلاد المغرب القديم، مثله مثل باقي شعوب الحضارات القديمة التي اعتبرت القارب عنصرا ضروريا لبلوغ العالم الآخر.

تضمّن الأدب المغاربي القديم هو الآخر إشارات لأهمية عملية عبور أنهار العالم السفلي مثلما يشير (أبوليوس– Apuleius)[26] ضمن كتابه الموسوم (الحمار الذهبي أو التحولات) عندما يذكر أن المعبود (شارون) هو الذي يقود الموتى على قاربه: "... ثم لن تلبثي أن تصلي إلى نهر الموتى حيث يطلب الرّبان (شارون) فورا أجر العبور، ويأخذ المسافرين إلى الضفة الأخرى... ولا يفعل شيئا مجانا..."، بالرغم من أن هذا النص لم يشر صراحة لوسيلة العبور، إلا أن ذكر كلمة النهر، والضفة الأخرى، توحي لوسيلة العبور التي لا تكون سوى قاربا.

كما ورد ذكر نهر (ستيكس–Styx) أحد أهم أنهار العالم السفلي في الميثولوجيا الرومانية ضمن العديد من النقوش الجنائزية ببلاد المغرب القديم، مما يستخلص أن عبور هذا النهر لم يكن دون الاستعانة بالقارب، والشأن نفسه عند ذكر اسم نفس النهر على نقيشة بـ:(هنشير حمام الزواكرة) شمال غرب مدينة (مكتاريس) زيّن نصبها بمذبح، مرفوقا بصورة ثور يهاجمه نمر، ورد ضمن محتواها مختصرا ما يلي:

"... كان يتفنن في مصارعه النيران ...

تفنن (سابينوس–Sabinus) في مصارعته الثيران...

..... يصيبه الثور مرتين، ويقذف به لظلمات نهر (ستيكس)..."[27].

كما احتوت مقبرة (بئر الجبانة) بقرطاجة على قطعة رخامية منقوشة على الجهتين، وردت ضمنها إشارة لهذا النهر، وقارب الإله (شارون)، وصاحب الإهداء العبد الإمبراطوري المدعو (نيكودروموس–Nicodromus) الذي أهدى هذه النقيشة لـ:(بريما منيكيا–Prima Minicia) يشير فيها لهذا النّهر:

" خصصت للآلهة (مان) المقدسة

(منيكيا بريما –Mincia Prima) التي عاشت ستة وعشرون سنة

(نيكودروموس–Nicodromus) العبد الإمبراطوري الذي أهدى هذا المعلم لزوجته الورعة التي استحقته

في سن مبكرة انتزعت مني زوجتي العزيزة

عشت معها ستة وعشرون سنة دون مأخذ

كانت رومانية المولد، وليبية الممات، للأسف هم يقودونك نحو قارب نهر (ستيكس)..."[28]، يستخلص من نصها إضافة لذكر نهر(ستيكس) والقارب، إلى جانب الإشارة لمكان المولد، والممات الذي يقصد به آلام، وآثار الموت بعيدا عن الديار[29].

وتعرّفنا نقيشة (قرطاجة)[30] لاسم نهر في العالم السفلي يدعي بـ:(ليتي–Léthé)، تأتيه أرواح الأموات لغرض التبرّد، ثم يتحوّل إلى مجرى مائي تستحم فيه الأرواح القادمة من العالم الدنيوي[31]، ولا شك أن الأنهار كانت مقرونة بالقوارب التي تنقل أرواح الموتى.

خاتمة:

تبين مما سبق أن القارب عند سكان الحضارات القديمة ارتبط برمزية العبور، لذلك فقد تمّ وضع الكثير من المراكب داخل المدافن، وفي حالات أخرى نجده مرسوما على جدرانها، والهدف من ذلك هو تسهيل عملية العبور للموتى حسب اعتقادهم، مقاربين رحلة القارب نحو العالم الآخر كاجتياز الحيوانات البحرية للمسطحات المائية (أنهارا أو محيطات) في العالم السفلي لبلوغ العالم الآخر، لذلك عملوا على تهيئة هذا النوع من القوارب لموتاهم من أجل إتمام رحلتهم الأخيرة نحو عالمهم الجديد، ألا وهو العالم الآخر.

الهوامش:

1- طه باقر، ملحمة كلكامش، موفم للنشر، الجزائر، 1995، صص85-86

2- أ.كوندارتوف، الطوفان العظيم بين الواقع والأساطير،ترجمة، عدنان عاكف حمودي، دار وهران للطباعة والنشر، دمشق، 1986، صص 42-43

3- M.H.Fantar, Eschatologie Phénicienne et Punique, INAA, Tunis,1970, p31 .

4- P.Montet, La grande barque de Chéops, Comptes rendus de l'Académie des inscriptions et Belles-Lettres, 105e année, n°2, 1961,pp103-10 . ينظر الصورة1

5- ياروسلاف تشرني، الديانة المصرية القديمة، ترجمة أحمد قدري، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، 1952، ص133. ينظر الصورة رقم **2**.

6- في الفصل 29 من كتاب الموتى يصور لنا صراع هذا الثعبان مع الآلهة التي ترافق الإله (رع) في مركبه، وتنتهي المواجهة بصرخة تتجدد عند كل رحلة : (... في الحقيقة الإله "رع" هزم " أبوبيس– Apopis"...) ينظر: الصورة 2.

برت إم هرو، كتاب الموتى الفرعوني (عن بردية آني بالمتحف البريطاني)، ترجمة عن الهيروغليفية السير: والس بدج، الترجمة العربية والتعليق، د. فليب عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000.

7- سيد عويس، الخلود في التراث المصري، دار المعارف، القاهرة، 1996 ، ص77.

8- الحرف والصورة في عالم قرطاجة، أليف – منشورات البحر الأبيض المتوسط، مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص235.

09- برت إم هرو،كتاب الموتى الفرعوني ...، صص 176- 188

10- ياروسلاف تشرني، المرجع السابق، ص151.

11- الغرض منه هو توفير المستلزمات الضرورية التي يحتاجها الميت في العالم الآخر، ولكي لا يزعج الحي، ينظر :

Marielle Mayo ,L'Or des morts Les cahiers de science et vie , n° 100 , 2007 , p 25

12- م.ف. ألبيدل ، سحر الأساطير، دراسة في الأسطورة–التاريخ–الحياة، دار علاء الدين، دمشق ، 2005،ص289.

13- H.Lhote, Les Peintures pariétales d'époque bovidienne du Tassili, Eléments sur la magie et la religion, Journal de la société des africanistes , 1966,Tome 36,fascicule1,p20

الصورة 4.

14- جزيرة تقع شمال غرب البلوبونيس

15- Sonia Darthou, Quelques descentes aux enfers célèbres, Religions et Histoire, n°30, 2010, p30.

16- Ibid, p 25.

17- G.Camps, Monuments et rites , Monuments et Rites funéraires protohistoriques, éd, Doins, Paris, 1974, p105.

18- تقع على الضفة اليمنى من وادي مقاسبيه (Magasbaia).

19- F.Bouniard, sur quelques peintures rupestres des chambres sépulcrales des Mogods, BAC, 1929, (pp 299-304).

20- ينظر الصورة 4 .

21- M.Longerstay, « Haouanet » , encyclopédie Berbére (= Ency. Berb.), T 22, 2000, p3382.

22-G.Camps, Recherches sur l'antiquité de la céramique modelée et peinte en Afrique du nord, Libyca, ar-ep, III, 1955 , p 355.

23- M.H.Fantar, Eschatologie…, p 25, note 117.

24- Ibid, p25.

25- Mounir Fantar , Expression de L'Au-delà dans l'univers Phénico-Punique, Actes du 5éme colloque international sur l'histoire des steppes tunisiennes, Sbeïtla , session 2006 , Institut National du Patrimoine, Tunis, 2008, p 40 note 16

26- Apulée, Apologie, Florides, VI, Métaphormose, collection Bude , trad.de Volette, 1954, 6,18,8 ; 6,19,1

27- Chr.Hamdoune, Vie et mort et poésie dans l'Afrique romaine d'après un choix de carmina latina épigraphica, ouvrage publié avec le concours de l 'EPHE et de l'université de Montpellier III, éd. Latomus-Bruxelles, volume 330, 2011, pp 74-75.

28- Willmanns.G, Th. Mommsen, Corpus Inscriptionum Latinarum, Volume VIII, Berlin, 1881, (CIL,VIII, 12792).

29-Chr.Hamdoune, mouvements de populations dans les carmina funéraires africaines, in l'Africa romana, 16, 2006, (pp 1001-1020).

30- CIL,VIII, 12792 (…Inque tuo tristis uersatur pectore Lethe…)

31- J.Smidth, Dictionnaire Grecque et Romaine, éd. Larousse, Paris, 2001, p116.